أزمة الذات في الهوية الوطنية: نحو عولمة إيجابية

بقلم ا. د. جونزيب برمودس رونرس،

قسم الفلسفة، جامعة فلانسيا، إسبانيا.

ترجمة الدكتور الزواوي بغوره،

قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الكويت.

الملخص

منذ أن أسس الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكارت الهوية على أساس الهوية الشخصية، وعززه الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم، أصبح هذا المفهوم مفهوماً سياسياً لمختلف الدول الأوروبية في القرنين التاسع عشر و العشرين.

ولكن أوروبا المعاصرة تعيش حالة يصح وصفها بحالة مفترق الطرق، وعليه، فإن المطلوب من الاتحاد الأوروبي بوصفه هيئة سياسية أوروبية إعادة النظر في مفهوم الهوية، وبخاصة الهوية الثقافية التي تحتاج إلى الانتقال من مرحلة الأمم الأوروبية إلى مرحلة الأمة الأوروبية، وهذا بدوره يتطلب إعادة بناء جديد لمفهوم الهوية عموماً، وبخاصة مفهوم الهوية الثقافية.

ولكن عملية إعادة البناء للهوية الأوروبية تحتاج إلى علاقات جديدة مع مختلف الهويات الثقافية المغايرة لأوروبا، وبخاصة تلك الثقافات الكبرى، كالثقافة العربية، أو ما كان يصطلح عليه بحوار الشرق والغرب، أو الحوار الإسلامي المسيحي، أو الشمال والجنوب.

ولقد قدم مجموعة من الفلاسفة في تاريخ الفلسفة الحديثة و المعاصرة أمثال هيغل و ماركس و نيتشه و دريدا و فوكو إسهامات نظرية تساعدنا على إعادة النظر في الهوية الثقافية، وتمكننا من تقديم منظور مرن وسلس للهوية الثقافية قادر على أن يتحول إلى مفهوم عالمي. وعليه، فإن السؤال الذي نعكف على الإجابة عنه هو: ما العناصر التي تساعدنا على تشكيل هوية مرنة؟ ومن أولئك الفلاسفة الذين أسهموا في تشكيل هذه الهوية الجديدة؟.

يعتبر ديكارت مؤسساً للفلسفة الحديثة؛ لأنه قال: (أنا أفكر إذن أنا موجود). إن هذه المقولة تفصل بين الجسد والنفس أو الذات. ولقد تم نقدها في الفلسفة المعاصرة، و بخاصة عند الفيلسوف (ميشيل انفراي) الذي اتهم ديكارت بإقصاء الجسد من المناقشة الفلسفية، وطالب بضرورة إعادة صياغة المسألة من جديد[1]. ومن جهته انتقد فيلسوف العلم (دانيال دميت) موقف ديكارت، وبخاصة ما جاء في كتاب:التأملات في الفلسفة الأولى، من جهة العلاقة المبهمة بين الجسد وبين النفس [2]. وانتقد بشدة الاستعارة الديكارتية المقنعة التي تؤيّد وجود (مركز خاص) في دماغنا مسؤول عن تحليل ودمج المعلومات الواردة. واعتبر هذه الفكرة من أشد أفكار ديكارت (مكراً)؛ لأنها تؤدي إلى رسم الحدود بين الـ(ذات) والـ(عالم الخارجي)[3]. كما تؤكد أن الدماغ لا يعمل بطريقة (متسلسلة) بل بطريقة فوضوية ويعتمد على عمليات مراجعة ودمج للمعلومات بطريقة متواصلة. ولقد خلص هذا الفيلسوف الأمريكي إلى نتيجة مؤداها أن الذات ليست أكثر من: «مركز ثقل السرد»[4]؛ لأنها توفر لنا وللآخرين هوية وتجعل سلوكنا قابلاً للتنبؤ به.

ولقد سبق إلى هذا التصور الفيلسوف الإنكليزي ديفيد هيوم عندما ربط الذات بالانطباع. وفي الفلسفة المعاصرة، فإن الفيلسوف الذي انتصر لفكرة السرد هو جان فرنسوا ليوتار مؤسس فلسفة ما بعد الحداثة، والذي استخدم في نقده للهوية مفهوم السرديات الكبرى، أو (الميتا سرديات)، وبين أن ما بعد الحداثة تعني الشك في هذه السرديات الكبرى وهو ما يؤدي إلى القول بالسرديات القصيرة أو الجزئية.

وبهذا المعنى تتضح العلاقة بين دميت و بين ليوتار، وتبرز النقطة المشتركة المتمثلة في السرد القصير[5]. ومما لا شك فيه أن الفلسفة المعاصرة تضم أسماء عديدة تنتمي إلى هذا التوجه العام الناقد للهويات الشاملة، ومنها –على سبيل المثال – مدرسة فرانكفورت، وبخاصة عند أدورنو وهوركهايمر.

ومن الناحية التاريخية فإن الهوية لا يمكن فصلها عن ميراث التنوير والرومانسية. وعلى الرغم من النقاش الدائر بين كبار الفلاسفة وعلماء الاجتماع وبخاصة هابرماس وإدغار موارن حول هذا الموضوع، فإن ما يجب الإشارة إليه في هذا السياق هو ما طرحته النزعة الرومانسية بشأن عالمية القيم أو خصوصيتها، ومنها بالطبع قيم حقوق الانسان.

إن تجربتنا في القرن العشرين تبين أنه إذا كانت شريعة حقوق الإنسان تحتوي على الكثير من الأمور الإيجابية التي لا يجب التخلي عنها، فإن ذلك لا يجب أن يؤدي بنا إلى تقديس قيمها بوصفها قيماً مطلقة، لماذا؟ لأن هذه الشريعة لها مصدرها و هو التصور الغربي للعالم. و بالاستناد إلى الفيلسوف أشعيا برلين الذي حلل أعمال فيلسوفين لهما مواقف نقدية من التنوير، و هما: الإيطالي فيكو، والألماني هردر، نستطيع القول مع الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران إنه من الضرورة تحقيق الوحدة في التنوع و التعدد والاختلاف.

والواقع أننا ما نزال بعيدين عن هذه الهدف؛ لأنني أعتقد أن اللعبة لا تتم حقاً في مجال الهوية الوطنية والثقافية، بل إن هذه الأخيرة لا تزال واحدة من البيادق المستخدمة على لوحة المصالح الجيوسياسية والاقتصادية العالمية. و تجربة أوروبا الحالية خير مثال على ذلك.

ومهما كانت طبيعة العراقيل و التحديات، فإن التفكير الفلسفي يفرض علينا الدفاع عن ضرورة التعايش العالمي، والانتصار كما يسميه عالم الاجتماع البولوني زيغمان بومان (بالهويات المرنة)، وهو ما يعني الاستغناء عن البحث عن هوية صلبة وجوهرية ومركزية، و العمل من أجل تأسيس هوية مرنة قادرة على التكيف والتجدد في عالم لا يتوقف عن التغير.

وبناء عليه فإنني أنتصر لمطلب زيغمان بومان الداعي إلى ضرورة : «إنشاء مؤسسات عالمية قادرة على السيطرة الفعالة على العواقب الاجتماعية والسياسية للعولمة الجامحة»، أو هذه العولمة التي أسميها بالعولمة السلبية، والعمل على تأسيس عولمة إيجابية لا تخضع لقانون السوق الأعمى، وإنما تأخذ بعين الاعتبار قيم العدل والإنصاف، ويكون عمادها هوية مرنة قائمة على الحوار والتواصل والسلام.

المراجع

Bauman, Zygmunt (2005): Identitat. València: Publicacions de la Universitat de València, Assaig 12.

Bauman, Zygmunt (2010): El tiempo apremia. Barcelona: Arcadia.

Berlin, Isaiah (1997): Nacionalisme. València: Tàndem Edicions, Arguments, 1.

Dennet, Daniel (1995): La conciencia explicada. Barcelona: Paidós Ibérica, Paidós bàsica, 76.

Dubet, François (2006): El declive de la institución. Profesiones, sujetos e individuos en la modernidad. Barcelona: Gedisa, Punto crítico.

Gergen, Kenneth J. (1992): El yo saturado. Barcelona: Paidós Ibérica, Paidós contextos 5.

Habermas, Jürgen (1989): Identidades nacionales y postnacionales. Madrid: Tecnos, Cuadernos de Filosofía y Ensayos, p. 91.

Heidegger, Martin (1989): Fites. Barcelona: Editorial Laia, Textos filosòfics 52, p. 148, 180.

Horkheimer, t. l Adorno, t. w, (1994): Dialéctica de la Ilustración. Fragmentos filosóficos. Madrid: Editorial Trotta, Colección estructuras y procesos, Serie filosofia, p. 100-101.

Hume, David (1984): Tratado de la naturaleza humana. Barcelona: Orbis, Historia del pensamiento, 17.

Lyotard, Jean-François (1993): La condición postmoderna. Informe sobre el saber. Barcelona: Ed. Planeta-De Agostini, Obras maestras del pensamiento contemporáneo, 18.

Morin, Edgar (1997): "La unidualidad del hombre" en Gazeta de Antropología nº 13, 1997, artículo 01. (http://www.ugr.es/~pwlac/G13_01Edgar_Morin.pdf).

Onfray, Michel (2007): Las sabidurías de la antigüedad. Contrahistoria de la filosofía, I. Barcelona: Editorial Anagrama, colección argumentos 361.

Rorty, Richarr (1998): Pragmatismo y política. Barcelona: Paidós Ibérica, Paidós contemporáneo 55.

الهوامش

(1) Onfray, Michel (2007): Las sabidurías de la antigüedad. Contrahistoria de la filosofía, I. Barcelona: Editorial Anagrama, colección argumentos 361, pp. 15-27.
(2) Dennet, Daniel (1995): La conciencia explicada. Barcelona: Paidós Ibérica, Paidós básica, 76, p. 13.
(3) Dennet, 1995, p. 121.
(4) Dennet, 1995, p. 429.
(5) Lyotard, Jean-François (1993): La condición postmoderna. Informe sobre el saber. Barcelona: Ed. Planeta-De Agostini, Obras maestras del pensamiento contemporáneo, 18, p. 10.